مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/65

ر ت م د: 1112-685x	المجلد: 15 / العدد: 01 / جـوان 2022
ر ت م د إ: 2588-2236	ص ص: 179 ـ 201

روايـة كتاب الأمير مسالك أبـواب الحديـد لواسيني الأعـرج مقاربـة سوسيـو ـ بنائيـة

The novel kitab elAmir massalek aboib elhadid of Wassini Laaredj Socio-structural approach

كمـال رايـس *

جامعـة العـربي التبسي

تبسـة / الجزائـر

Kamel.rais@univ-tebessa.dz

تاريخ الارسال: 2021/09/24 تاريخ القبول: 2022/05/10 تاريخ النشر: 2022/06/10

الملخص:

رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد للأعرج واسيني ؛من الروايات الجزائرية المعاصرة التي نالت الحظوة والاهتمام من قبل الباحثين والدارسين ،واحتفت بها عديد الصحف والمجلات ،ويعزى ذلك إلى تيمة التاريخ وتمركزه في التشكيل السردي للرواية عبر توظيف المتخيل التاريخي لملابسات الإخضاع والمقاومة والهيمنة ؛ التي مست الأنا الجزائرية أواخر القرن التاسع عشر ،مركزة على حياة الأمير عبد القادر الجزائري ؛ونظرا للفجوة القائمة بين التاريخ كمعطى موضوعي ثابت، وبين التاريخي ،أي : فعل التخييل وما تضفيه التجربة الفنية للمبدع ،ارتأينا أن نقارب هذا المنجز السردي بمنهجية سوسيو -بنائية لبيان الجماليات من ناحية أولى،والأفكار - البنيات الدالة- من ناحية ثانية ،ذلك إن هذه الرواية لا تعرض التاريخ– لأنه ليس من اهتماماتها - بل تتجاوزه إلى معايير رؤيوية تخص الراهن والتطلع إلى المستقبل في ضوء متغيرات جيو - سياسية تمر بها العلاقة بين الأنا والآخر.

الكلمات المفتاحية. رواية، كتاب الأمير، مقاربة سوسيو بنائية.

Abstract:

The novel Kitab elAmir massalek aboib elhadid by Laaredj Wassini is one of the contemporary Algerian novels that has won the favor and attention

* المؤلف المرسل.

of researchers and scholars, was celebrated by many newspapers and magazines. The subjugation, resistance and domination that affected our Algerian people in the late nineteenth century Focusing on the life of Emir Abdelkader Al-Jazaery, and in view of the gap between history as a fixed objective given and between the historical, that is, the act of imagination, and what the artistic experience brings to the creator, we decided to approach this narrative achievement with a socio-constructive methodology, to demonstrate aesthetics on the one hand and ideas - signifying structures - on the other hand. Because this novel does not present history - because it is not one of its interests - but rather goes beyond it to visionary criteria concerning the present and looking to the future in the light of geo-political variables experienced by the relationship between the ego and the other.
Key words: Novel, kitab el amir, Socio-structural approach.

مقدمة:

تعرض السوسيو-بنائية رؤيتها النقدية عبر تجاوز مقولة انغلاق البنية والتأكيد على تعالقها الوثيق بالبنيات الخارج نصية لا سيما في عمقها الاجتماعي والإنساني والثقافي. وتعمل على مقاربة النصوص الأدبية وفق منظور يتيح للناقد أو الدارس الانتقال بين النص وخارجه؛ من خلال تطبيق مقولات وآليات إجرائية؛ تزاوج البحث عبر الحفر في مستويي الكيف الشكلاني للنص؛ كيف كتب النص-؟- و هذا ما سنعمل على بيانه من خلال عرض البرنامج السردي لرواية كتاب الأمير- وبين اللماذا الدلالي الماركسي؛ لماذا كتب النص؟ حيث سنعمل على توضيح الأبعاد السوسيو-بنائية ذات المعطى الإيديولوجي، الذي يبرز الإيديولوجيا كنظام من الأفكار، تكون اجتماعية المنشأ، تتطور لتشكل أفق تطلع جماعة معينة في إطار جغرافي وتاريخي خاص. فتعمل على توجيه المنتمين لها عبر تكييف الوقائع، واستثمار الأحداث والمواقف لبناء نظام دال معين. هو عينه عالم الرواية.

عالم ينطوي على تكييف معرفي لحقائق كما قد ينطوي على تزييف. -فتعمل- مقولاته على تحسين الفرص لأقلمة الإنسان مع الواقع وظروف وجوده الخاصة عقلانية أولا أو غير عقلانية عبر تحيين مستويات الوعي [1]

لدى الفاعلين في عالم الرواية[2]؛ والتي تتمثلها شخصيات مهيمنة على الخطاب، مثلها في مادة مقاربتنا شخصيتا: الأمير عبد القادر الجزائري، والقس الفرنسي مونسينيور ديبوش.

1. الوعي الممكن وإيديولوجيا التغيير:

يتجلى نمط **الوعي الممكن**[3] للإيديولوجيا التقدمية التغييرية، عبر ممارسات الشخصيتين الرئيسيتين الأمير "عبد القدر الجزائري" والقس الفرنسي "مونسينيور ديبوش" المتطلعتين إلى رؤية واحدة؛ تشمل الواقع الإنساني في تعدده السوسيو-ثقافي التاريخي، عبر منظور يتيح التحليل العقلاني للظواهر، وتفسيرها تفسيرا واقعيا حسب علاقتها بالجانب الاجتماعي والاقتصادي للجزائريين الخاضعين تحت الاستعمار وكذلك بالنسبة للمقاومين لوجوده والمعارضون لقسوته من الفرنسيين والجزائريين

وتبرز شخصيتا "مونسنيور ديبوش" و"الأمير عبد القادر" ضمن مستوى تفكيكي يستهدف البنيات السائدة في المجتمع الجزائري والفرنسي على السواء، وذلك بتبني إستراتيجية تقدمية منافية ومنتقدة لحركات الجمود والتخلف التي تعكر تقارب الطرفين. ولعل أهم صورها؛ سعي "الأمير عبد القادر" إلى توظيف خبراته الطويلة وفكره النير في إصلاح الأوضاع السائدة في الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي لها؛ بدءا بتشكيل الإمارة -التي قبلها على مضض وفي ظروف جد صعبة، ثم وعيه الذاتي بضرورة توحيد القبائل عبر سن قوانين تمنع الإغارة وفلسفة الحرب والغنائم، التي عدها بمثابة العائق الأساس، أمام مشروعه التغييري؛ القاضي بالانتقال من النظام القبلي إلى نظام الدولة الموحدة. لذلك نجد "الأمير" كثير التعمق في إدراك العلاقات الاجتماعية ووضعها في سياقها الصحيح إيمانا منه بضرورة التغيير، التي تشكل قوة بناء وقوة ردع للمتكالبين الاستعماريين.

يقول الأمير: «خلاص كل شيء لازم يتغير، هذاك العهد اللي كنا فيه ناخذ مال الناس بغير حق راح. القبائل صارت منا من لحمنا ودمنا ونحن صرنا منها أخوة في الخير والشر» [4]

هكذا صار "الأمير عبد القادر" يمثل الأمل في حل مشاكل القبائل نظرا لما يملكه من مواصفات وعطاء فكري يؤهله لتشكيل تصور يعاين الواقع المتدني للبلاد والعباد الذي يظهر في ممارساتهم اليومية كما يستشرف مستقبلا مغايرا ينبني على رؤية إيديولوجية قوامها صقل كل الإمكانات لتغيير الواقع المتخلف والمضي قدما لبناء مستقبل واعد يكون عنوانه الدولة القوية.

تظهر أهم ركائز الوعي الممكن لإيديولوجية التغيير؛ والتي يحملها البطل الفاعل عبر تحليل نقدي يعري الذات ويكشف عيوبها قصد خلق مستوى ذهني يسمح بمراجعة الذات لواقعها وتجاوزها للفعل الراهن المؤسس على الاندفاع والعاطفة. وهذا ما استند عليه

الأمير في بنـاء إيديولوجيتـه التي ترفض الرضوخ للأفكار الدوغمائيـة الدينية العاطفية والأفكـار القبليـة، محاولا بعث أسس فكرية تنتظم ضمن سياق رؤية شاملة تحقق التغيير؛ يقول "الأمير":

«ابتداء من اليوم كل شيء سيتغير لسنا في حاجة إلى هذا البذخ لكي نحارب الآخرين، الانتصار على الغزاة صعب، نحتاج إلى أسلحة حقيقية، إلى الماء، إلى زراعة مغذية، نحتاج إلى تغيير سلوكاتنا اليومية، نفكر كيف نصنع المدافع والأسلحة الخفيفة والسيوف بدل أن نكتفي بتصليحها أن نعيد اكتشاف البارود إذا دعت الضرورة إلى ذلك، أن نتخلص من البارود الأخضر القبائلي الذي لا ينفجر وإذا انفجر أحرق صاحبه قبل أن يحرق العدو، المعركة استعداد يومي وإلا سنحني الرؤوس ونقوم بما قامت به بقية القبائل ونعود نتصيد الغنائم» [5]

إن هذا الوعي المتجسد في ضرورة تغيير الأحوال الراهنة، يقدم في مستوى منه قراءات تصحيحية للاختلالات والتشوهات الحاصلة في المجتمع الجزائري؛ التي ولدتها الظروف السوسيو-تاريخية التي أحاطت بملابسات المرحلة، «وكنتيجة لذلك يصبح الوعي الممكن مفهوما مفتاحيا لفهم للوعي القائم-السائد-قصد تجاوزه».[6]

يؤسس الأمير لوضعية انتقالية، أساسها تحسيس القبائل بدورهم في بناء دولة قوية وتأسيسا عليه عمد" الأمير" إلى تشكيل نواة نظامية سياسية، لدولته حيث قسم: «حيث قسم المقاطعة الوهرانية إلى خلافتين: خلافة معسكر و خلافة تلمسان ...وعين في كل ولاية مجموعة من الآغاليك على رأس كل واحدة منها آغا يشرف على مجموعة من القبائل التي تقع بدورها تحت وصاية القايد الذي يتولى التسيير بالعودة إلى الأغا المرتبط بدوره بالخليفة» [7]

كما قام "الأمير" بتشكيل جيش نظامي يحاكي الجيوش الغربية من حيث التنظيم والفعالية العسكرية «المشاة والمسماة العسكر المحمدي...يتحرك تحت إمرة أغا والفيلق مكون من ألف نفر والفرقة مكونة من مائة رجل يقودها السياف بحسب الرتبة لكل فريق لباسه الخاص، ثم الخيالة والمدفعية».[8] ثم اهتم بالبنية التحتية من خلال بناء الحصون وتشييد المصانع وبناء مكتبة تاكدامت، وعيا منه بمستوى الثبات الذي يكتنف مفهوم الدولة؛ فالدولة لا يمكن أن تبنى إلا ضمن إطار جغرافي ثابت يتأسس على الجدل الحاصل بين الطبقات الاجتماعية والبنية التحتية. ونتيجة لذلك تبدو الفكرة الأساسية لوعي التغيير

هي الإيمان المطلق بحركة التطور التاريخي للمجتمع، التي تتيح الانتقال من مستوى أقل - متدن- إلى مستوى تقدمي استشرافي ؛أساسه العمل الجماعي وروح المبادرة الفردية المبنية على قناعة الحياة الكريمة ووحدة المصير.

2. الوعي الممكن وإيديولوجية التعايش / الاحتواء:

يؤمن هذا المستوى من الوعي منظورا إيديولوجيا يطرح فكرة التعايش والاندماج، باعتباره الرؤية المركزية التي يسعى "مونسنيور" لتأسيسها وعرضها كمشروع إنساني، يستهدف تقريب الأنا والآخر. وقد استفاد "القس" من البعد الديني الذي أتاح له الحوار الفعلي مع "الأمير عبد القادر"؛ بدء بحادثة إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين والجزائريين التي مثلت أولى عمليات الحوار بينهما، وتعد رسالة[9] "القس" لـ"لأمير عبد القادر" المتعلقة بإطلاق سراح السجناء الفرنسيين لحظة انطلاق الحوار الفعلي الذي أسس فكرة التعايش؛ لا سيما بعد رد "الأمير" الذي زاد من تعميق البعد الروحي بين الشخصيتين، وخير مثال على ذلك قيام ديبوش شخصيا برعاية الأسرى «تقديم القس المساعدة للسجناء بالألبسة والأغطية».[10] وتوسطه لدى القادة والعسكريين لإنجاح صفقة تبادل الأسرى التي توجت بنجاح كبير أعقبها امتنان الأمير «عبر شكر "القس" وإهدائه أربعين معزة مالطية؛ بهذه المعاز ذات الضروع المدلاة يمكنك إطعام الأطفال الذين تبنيتهم والذين فقدوا أمهاتهم».[11] كما كان لرسالة الأمير الموجهة للقس بمناسبة رأس السنة الميلادية أثر هام في تقريب الشخصيتين وتفعيل الحوار بينهما. وهذا ما دفع بالقس لاستغلال التقارب الحاصل بينهما، كي يمضي قدما في تحقيق مشروعه الإيديولوجي؛ الذي كان يستهدف في البدء تنصير الأمير وتعميده في الكنيسة الكاثوليكية. يقول الراوي العليم[12]: اندهش "مونسينيور ديبوش" من كلام "الأمير"؛ فقد شعر كان شيئا يعمل بداخله. منذ أن فاوضه في السجناء تأكد له أن هذا الرجل لو امتلكته الكنيسة في صفها لتحول إلى قوة كبيرة لمواجهة كل الخيبات والانتكاسات. وهذا الطرح يقدم فكرة السيطرة العقائدية الدينية التي تؤسس لإيديولوجيا الاحتواء. يقول "ديبوش":

«في البداية تمنيته مسيحيا، نزهو به كأخ ونلقنه تعاليمنا ليذهب بها عند ذويه ويشيعها لكن مع الزمن تأكدت أن هذا الرجل الذي يشبهنا في كل شيء لا يمكن أن يكون إلا هو، رجل محب لكل شيء يقرب الإنسان من المحبة و الله » [13].

شكلت الهالة الصوفيه الذي غلفت شخصية "الأمير" المفتاح الأساس للوعي الممكن لإيديولوجيا التعايش والاحتواء؛ التي عملت على جذب الآخر الجزائري إلى فلك التفاوض باسم الإنسانية تارة، وبمحبة الله تارة أخرى. وبهذا البعد؛ تقترب الشخصيتان من تأسيس وعي عقائدي موحد؛ ينطوي نظريا على أسس متعددة تستدعي مفهوم الإنسان المجرد ووجوب تمثله لمبادئ الحرية والعدالة والمساواة والكرامة الإنسانية؛ يقول "القس ديبوش" في حوار مع الأمير:

«لا أعتقد أننا وصلنا إلى هذا الحد أيها السلطان الكريم وإلا لن نتحدث عن كائن اسمه الإنسان، الإنسانية يا سيدي عبد القادر استحقاق وليست إرثا سهلا. معك الحق الاستحقاق يحتاج إلى مجهودات دائمة للوصول إلى تحقيقه. ديننا يقول كذلك. يقضي الإنسان العمر كله بحثا عن تأكيد إنسانيته، لأن كل ما يحيط بها هو عبارة عن مزالق متعددة عليه تفاديها بشهامة وعزة نفس» [14]

إن المعطى الإنساني الذي يضمن التعايش والاندماج، هو الأساس الذي انبنت عليه مستويات الوعي التي أسست حوارا بين الشخصيتين، استهدف تقريب الأنا والآخر من خلال فكرة حوار الأديان والثقافات.

وتعد فكرة حوار الأديان والثقافات المجال الكفيل لتغيير الصور النمطية السلبية التي يختزنها وعي الذات ووعي الآخر لاسيما في المسائل المتفق حولها كالحس الإنساني الذي يضمن استقرار النوع ويتيح خلق أفق حوارات تساهم في التعايش وحق العيش المشترك. والواقع أن هذا الحس لا يتأتى دون شرط القبول أي ضرورة الاعتراف المتبادل بين الطرفين.

وعليه، تأسس الحوار الديني من خلال الاتصال اللامباشر؛ ممثلا في الرسائل الإخوانية التي تم تبادلها بين الأمير والقس والتي أقرت مبدأ الاعتراف بالآخر. يقول الأمير: «اعذرني أن أسجل ملاحظتي لك بوصفك خادما لله وصديقا للإنسان؛ كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح كل المساجين المسيحيين... وليس سجينا واحدا كائنا من يكون وكان لفعلك هذا أن يزداد عظمة لو مس كذلك السجناء المسلمين الذين ينطفئون في سجونكم. أحب لأخيك ما تحبه لنفسك» [15]

قد كان لوقع خطاب "الأمير" على مسامع "القس" بالغ الأثر في تعميق البعد الإنساني الذي عبرت عنه صراحة مواقفهما فيما يخص حالة الأسرى والسجناء. ونظرا للإيمان المطلق بحق الاختلاف ووجود الآخر، فقد دخل "الأمير" في سلسلة حوارات نمت عن رغبة جامحة

في الإطلاع على حقيقة الدين المسيحي، مثلته نقاشاته حول المسيحية مع الأب "سوشي" و"مونسنيور ديبوش" يقول الأمير: «روحك أنت غالية عليك ومستعد أن أمنح دمي لإنقاذها. امنحني من وقتك قليلا لأتعرف على دينك وإذا اقتنعت به سرت نحوه»[16]. «طلب من مونسنيور أن يساعده للحصول على كتب متخصصة في الدين وإلى كاهن معرب يشرح له تفاصيل المسيحية في صفائه الأول»[17].

هكذا تتحقق مشروعية الاعتقاد، كحق فردي وجب احترامه من طرف كل الأديان والشرائع السماوية؛ حق يستمد جوهره من خلال مفهوم التعادلية الذي ينطوي نظريا على الحرية، والمساواة، والكرامة الإنسانية؛ ويتيح توسيع مجال الصلات الإنسانية الفكرية والفلسفية والأخلاقية. وعليه تبدو فكرة التعادل في منظورها الفلسفي؛ ركنا هاما من أركان بنية إيديولوجيا التعايش؛ التي دفعت بالوعي القائم للشخصيتين للتخلي عن الاعتقاد بقدرة العقل السياسي على إنتاج الحقيقة الإنسانية، ومن ثمة التخلي عن بعض الممارسات التي من شانها أن تقوض مشاريع التقارب والتعايش.

وقد كان للتحليل الجاد المبني على سلطة العقل- والذي يستهدف خلخلة بعض المفاهيم الراديكالية -جانب فعال في إضفاء المشروعية على وجوب التقارب الإستراتيجي بين الأنا و الآخر. وهذا بتقديم وجهات نظر حول صيغ المقاومة و الجهاد ومفهوم الحرب وفكر التنوير؛ استهدفت في معظمها تعرية الذات لتأكيد حقيقة موضوعية كائنة -موجودة- وفي هذا الصدد، تؤسس الإيديولوجيا المهيمنة خطاب إدانة المقاومة عبر صورة خطابية حجاجية، تجعل منها إحدى المسارات المغلوطة التي قد تؤدي إلى انهيارتام لوجود الأنا لتقدم بذلك مفاهيم جديدة تنبع عن رؤية وقراءة مغايرة لمفهوم الجهاد والمقاومة. يعبر الأمير عن ذلك صراحة بقوله:

«فالجهاد لا معنى له إذا لم يضمن حد أدنى من غريزة البقاء، ليس للأفراد فقط ولكن للأرض والتراب، السيف بدأ ينسحب أمام البارود والمدفع اللومبردي والجياد والخيول الكبيرة والأكثر أصالة أمام السيارات البخارية، مشكلة قبائل الأشراف أنها لازالت تظن أن الانتصارات تأتي بقدرة قادر».[18] كما تتأتى من خلال النقد الذاتي، قراءة تصحيحية لمعطيات متوارثة شكلت مفهوما مبتورا فيما يتعلق بحقيقة المقاومة وآليات تحقيقها. ويبدو الحوار الدائر بين "الأمير" و"القس" حول علاقة الأمير بمقربيه، أبرز مثال على إدانة خطاب المقاومة؛ يقول الأمير:

«وهل يعرفون معنى أن نجاهد، ما معنى أن نجاهد؟ ونحن نواجه السيارة والآلة الحربية الله أعطانا عقلا للحفاظ على أنفسنا وعلى أرواح الآخرين. الجهاد لا أن حمل سيفا وتشهره في وجه أول من تصادفه، الجهاد أن ترفع سيفا عندما تنغلق في وجهك سبل السلم...الجهاد أن يتعلم الإنسان باستمرار أنه جاهل كلما تقدم به الزمن».[19]

بهذه الرؤية، تسعى الإيديولوجيا المهيمنة إلى إفراغ الذات لمكبوتاتها وفق منظور نقدي يستهدف تغيير السلوك وتعديله كي يتماشى ومتطلبات المرحلة التاريخية؛ كما ندرج أيضا النقد الحاد الذي؛ وجهه "الأمير" للوضع القبلي العاجز عن التغيير؛ يقول "الأمير عبد القادر": «كنت أعرف إننا سنخسر الكثير ولكن القبائل كانت مخطئة، مخها حابس ولا حل لي معها إلا ابتلاع هذه الخسارات الفادحة».[20] وقوله أيضا: «كنت أستمع إلى القصائد وهي تمجد السيوف وأضحك لأن حياتي بدأتها هكذا ...آه لو كان الشعر يحرر البلاد والناس»[21].

تسهم الشخصية الثانية، في تفريغ الإنسان الفرنسي من عقلانيته الزائفة التي تمارس إجحافا باسم الفكر على الآخرين؛ لذلك يحقق "مونسنيور ديبوش" الشخصية المتكاملة التي تعبر مباشرة عن نفسها من خلال عواطفها الذاتية، يقول: «في انتظار القيام بما هو أهم، أعتقد أنه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد باستماتة في نصرة الحق تجاه هذا الرجل و تبرئته من تهم خطيرة ألصقت به زورا وربما التسريع بإزالة الغموض و انقشاع الدكنة التي غلفت وجه الحقيقة مدة طويلة»[22]

وبتعبير آخر تقدم إيديولوجيا التعايش صورة "القس" كصورة موضوعية تجسد في اللحظة التاريخية، أفقا للحوار والتعايش بين الأنا والآخر –بين الإسلام والمسيحية- ليس فقط على مستوى التعايش الديني، بل أيضا على مستوى الاندماج الكلي في القضايا الإنسانية الكبرى. ولعل اعتراف "القس "بحقيقة النسخة المخفية لمعاهدة التافنة التي عمل الآخر الفرنسي على حجبها؛ لدليل واضح على نقده لسلطة بلاده السياسية التي تنكرت للاتفاقية الأصلية. يقول" ديبوش" في هذا الصدد: «البارحة قضيت الليلة بكاملها أعصر دماغي ووثائقي عبثا ولم أجد جوابا مقنعا لقصة النسخة الخفية من معاهدة دوميشال، فهمت من الوثائق التي بحوزتي أن نسخة ثانية خبئت عن المسؤولين الفرنسيين» [23]

كما كان منظوره-ديبوش- للحرب باعتبارها شرا تمقته الأديان والأعراف، الأثر الحاسم في إبعاد المنظور الديني عن حرب الجزائر؛ محيلا إلى كونها حربا براغماتية نفعية، وليست حربا صليبية ضد المسلمين. وعليه يقدم "مونسينيور ديبوش" نظرة نقدية لمفاهيم

العدالة والأخوة والحرية؛ التي رفعها رواد التنوير الفرنسي. بهذا المستوى، تقدم الشخصية ذاتها من منطلق الفرد الواعي بمسؤولياته الدينية والإنسانية وحقيقة رسالته الوجودية؛ حيث يعبر "ديبوش" عن ذلك صراحة، بقوله: «فما معنى حياتنا إذا كانت لا تصلح للإنصات لحياة الآخرين؟ الآخرون في حاجة دائمة إلينا وعلينا أن نذهب نحوهم هذا هو الإنسان ماعدا ذلك فلا قيمة لما يفعله»[24]. وهذا ما تحقق فعليا على مستوى الحوار الدائم الذي تقيمه الشخصية مع العناصر التي تحيط بها. هكذا يمكن القول أن مستويات الوعي الممكن قد انبنت على تشريح الوضع القائم ومعاينته قصد تأسيس رؤية حداثية للعلاقة بين الآخر و الأنا يكون أساسها الحوار المطلق الذي يكفل مبدأ الحوار و العيش المشترك.

3. الوعي الزائف وسياق الإيديولوجيا النفعية:

تظهر بنية الوعي الممكن للإيديولوجيا النفعية ضمن بعض الممارسات والأفكار التي تتبناها بعض الشخصيات؛ كشخصية "يوسف التركي" انطلاقا من وضعه الخاص كجندي تركي مسلم عميل لدى القوات الفرنسية. فيجسد في العمل الروائي صورة أخرى للتعايش والاندماج من زاوية براغماتية؛ تؤسس علاقتها مع الآخرين وفق مبدأ المنفعة الشخصية. وعليه، تحدد الشخصية مساراتها لخدمة المستعمر الفرنسي بكل تفان وإخلاص كي تضمن حضورها المتميز في هياكل إدارة الاحتلال.

وبذلك؛ سعى "يوسف" بكل ما يملك بأن يكون أداة طيعة في يد الاحتلال تكفل له خدمة مصالحه الذاتية وهذا ما حقق له منصب قائد السيافين في جيش "بيجو".

يخبرنا عن ذلك الراوي العليم بقوله: «لم يتوان يوسف الذي يعرف ثقافة الشرق في الهزيمة من إذلال قوات ولي العهد تاركا وراءه قرابة ألف قتيل من الفرسان وألفي جريح بعضهم لم ينج من رصاصة الرحمة التي يجد لذة في إطلاقها على من بقيت فيه إمكانية الحياة ».[25] كما تقدمه صورة للجشع والطمع من خلال ملفوظاته الدالة على ذلك؛ يقول "يوسف":

«للأسف لم أحصل على أين منهم ولكني حصلت على خيمة سيدي محمد وثماني عشرة راية وأحد عشرة قطعة مدفعية وشمسية ولي العهد، كلها هدية لسيدي بيجو»[26].

«لم يستطع الكولونيل يوسف أن يخبأ سعادته الغامرة فبدا يعد مكاسبه وغنائمه الكثيرة، ألبسة نسائية غالية وحزامين ذهبيين وأسلحة صغيرة وبعض المصاحف المخطوطة

والكتب الثمينة والرايات الحربية والكثير من الأواني النحاسية وغيرها جمعها كلها ثم تقدم بها إلى خيمة الدوق دومال وقدمها له كهدية»[27].

ويزداد تضخيم الشخصية بإعطائها الفعالية التحويلية على مسرح الأحداث باعتبار حنكته العسكرية التي لم يتوان لحظة واحدة في توظيفها للهتك بالإنسان الجزائري. وهذا عبر تمثلها لاستراتيجيه الدمار الشامل التي تستهدف القضاء على الآخر. يقول "يوسف":

«في الحرب إذا لم تقتل عدوك معناه أنك أعطيت المبادرة له لكي يقتلك في المرات القادمة، والعرب يفعلون ذلك بدون تردد، تعلمت هذا من الأتراك ومن مختلف المعارك التي خضناها لم تنجني سرعتي وأنا لا أوهم نفسي مطلقا جئت لأقتل أو لأقتل هكذا علمتني الحرب الفائتة».[28]

وتعد لحظة التأزم-اكتشاف الزمالة-؛ الحدث الهام الذي اقترن بشخصية "يوسف"، بدء من استجوابه لبعض الموقوفين الذين لم يتردد في إبادتهم بعد إفشاء سر العاصمة المتنقلة، كما تعزى إليه مسؤولية اكتشاف الزمالة بنفسه. يقول يوسف: «يبدو أنك أعمى يا كبتن وتحتاج إلى طبيب عيون ليس المعسكر إلا زمالة الأمير و سأعود مرة أخرى لأتأكد مرة أخرى لا يمكن أن تترك مثل هذه الفرصة تفلت من يد الدوق دومال»[29].-وكذا اقتراحه للخطة الهجومية التي أربكت الزمالة وجعلتها تنهار إلى حد كبير. إضافة إلى مواقفه التقليدية التي تنم عن تبعيته المطلقة للجهة التي تضمن مصلحته وهذا ما يبدو في رده على "الآغا": «لا تهتم يا آغا، أنا كذلك تخليت عن الأتراك عندما وجدت أنه من الأجدى لي خدمة دولة قوية تضمن حقوقي وحقوق أبنائي، فجيلنا الذي تعلم لم يعد قادرا على تحمل تخلف ناسه وأقربائه» [30]

وتعكس شخصية "يوسف" فكر الطبقات الاجتماعية الساعية لتأسيس إيديولوجيا التعايش والاندماج عبر بوتقة المد البراغماتي. ولعل أشهر مثال على هذه الطبقات القبائل الموالية للاحتلال في جهة وهران بالغرب الجزائري تحت قيادة القايد "مصطفى بن إسماعيل" الذي «قدم خدمة كبيرة لأعداء دينه وأرضه على رأس ست مائة خيال وكان وراء تدمير تاكدامت لأنه كان الأكثر معرفة بأسرارنا للأسف. كل الناس رأوا حقده الأعمى وهو يحرق الكتب ويدمر القلاع ومصانع البارود ويمرغ الوجوه الكريمة في الوحل ويقول للمشككين: هذا ما أراده لكم سيدكم السلطان عبد القادر أريحوا البلاد منه ترتاحون».[31]

وتبدو نفعية القايد "مصطفى بن إسماعيل "في سعيه المتواصل لإسقاط الإمارة الفتية وتفانيه في جمع الغنائم واستماتته المتواصلة في الحفاظ على رتبته كأغا خادم للجيش الفرنسي فعلى سبيل المثال يقول الراوي العليم: «عندما انتهى من تدمير ما تبقى من الزمالة مع لامورسيير -بوهراوة- طلب أن يعود إلى وهران بالقرب من زوجته الجديدة ذات العشرين ربيعا...مثقلا بالغنائم مع خيالته»[32].

لعل الفعل السابق مبرر ضمن مستوى الإيديولوجيا النفعية التي تضع نصب أعينها المصلحة الخاصة المتأتية عبر كل الممارسات اللامشروعة التي تخالف عموما سنن الكون وطبيعة الأشياء. وعليه يبدو الوعي الممكن لإيديولوجيا المنفعة، رؤية فكرية تسليمية أساسها القناعة المطلقة بالمصير المحتوم والواقع الجديد الذي لا يمكن مجابهته أو تغييره.

تأسيسا على ما سبق؛ يمكن القول أن الوعي الممكن للإيديولوجيا النفعية ينم عن وعي زائف سلبي وثيق الصلة بالممارسات الاجتماعية والاقتصادية داخل المجتمع ككل؛ غير أنه لا يشكل رؤية متماسكة لجماعة اجتماعية فاعلة، بل يبقى مجرد نزعة تجافي الواقع التجريبي يتملكها فرد «يكون وعيه خليطا وحيدا ومتميزا من عناصر الوعي الجماعي المختلفة والتي غالبا ما تكون متناقضة، يضاف إلى ذلك أنه يخضع لتأثير مجموعات لا ينتمي إليها بوضعه الاجتماعي، وهكذا فإن الوعي الجماعي لا يحصل كوعي ممكن في وعي كل فرد من المجموعة»[33].

4. الوعي القائم بين السلبية والحدس:

تقدم لنا رواية الأمير نماذج واضحة لتجليات الوعي الخاطئ أو السلبي الذي يظهر عبر ممارسات بعض الشخصيات الروائية، كشخصية الملك "مولاي عبد الرحمان" ملك المغرب وشخصية "محمد التيجاني "شيخ الزاوية التيجانية والأمير وخلفائه. إذ تصدر عنها سلوكات تتغذى من وعي سلبي ينتج عن معاينة الراهن وفق منظورات خاطئة أبرزها التوظيف السياسي للدين في مسائل مستعصية كالمقاومة والجهاد وكذا البعد السلطوي السياسي المعزز بمفهوم القوة، باعتبارها الأساس الذي تحتكم إليه الإرادة الفعلية السياسية.

وكنموذج على هذا النمط، تبدو سلبية الوعي في مغامرة "الأمير غير المحسوبة "في حربه على الشيخ "محمد التيجاني" مقدم الزاوية التيجانية بعين ماضي؛ والتي يبدو من

خلال التاريخ أنها كانت مؤامرة تستهدف شل الإمارة الجديدة وتشتيت قوتها وتدميرها عبر صراعات داخلية؛ يقول الراوي:

«أتساءل من بعث خليفة الأغواط العربي ولد سيد الحاج عيسى إلى المدية ليطلب من الأمير أن يساعده على كسر شوكة التيجانية ويقنعه بأن أتباعه ينتظرونه لمبايعته؟ لماذا أجبر الأمير على ترك قلاعه وتحضير مدنه وذهب إلى عين ماضي لتدميرها وهلاك عسكره بسبب الحصار والبرد إذا لم تكن هناك نية مدبرة سلفا»[34]

وتبرز سلبية الوعي-أيضا- في التسليم والقبول الذي أبداه "الأمير" حول أطروحات وأراء مستشاره السياسي "ليون روش" والقاضية بتدمير مدينة عين ماضي وإخضاع سيدها "الوالي" لسلطة "الأمير".يقول "ليون روش" محرضا "الأمير" : «يا سيدي السلطان أرى أن هذه وقاحة ويجبى أن يعاقب عليها لا يمكن أن يتحدث مع سلطان كبير بهذه اللغة»[35].

هكذا استقر في ذهن "الأمير" عزمه على محاربة التيجانيين رغم تدخل بعض قادته الذين حاولوا -وبوعي تلقائي- ثني الأمير عن خيار الحرب ؛لما له من بالغ الأثر على قوة الإمارة الفتية؛ يقول أحد مقربيه:

«المجهودات كبيرة ونحتاج يا سيدي السلطان أن ندخرها لمصلحة البلاد وهذه الفسحة من السلم، ولهذا أشعر يا سيدي أنهم يلهوننا عن عملنا الحقيقي الذي يجب أن نقوم به. ثم لماذا نقاتل من لا يعادينا؟ هل هذه المدينة مهمة لمستقبل البلاد الموحدة تحت رايتكم أليس من الأجدر لنا أن نتكفل ببناء الدولة التي نريد إنشاءها وننسى عين ماضي؟...يا سيدي لست مرتاحا لهذه الحرب. الجنرالات يتحرشون بنا. قسنطينة سقطت وقلاعنا في تاكدامت لم ننته منها بعد. نحتاج إلى وقت للسيطرة على منجزات التل وردة القبائل المتمردة على سلطانك. قلبي يقول لي أننا نرتكب خطأ كبير بدخولنا في عين ماضي ...لا أحد يضمن الآتي الكبير»[36]

ورغم حساسية الخطاب السابق الذي كان من شأنه تغيير موقف "الأمير" فيما يخص عين ماضي إلا أنه وبوعي سلبي مؤسس على الإحصائيات التي لا تدل دائما على نجاعة الإنجازات اعتقد أنه بإمكانه التحرك في الزمن والمكان المحددين دون أي صعوبة مستندا في موقفه على البنية التحتية المادية التي أسس هياكلها المركزية وفق إستراتيجية التصنيع. كما كان لالتزام الجنرال فالي- بمده بأربعة مدافع وكميات هائلة من بالبارود وتسهيله وصول تعزيزات عسكرية مغربية لمساعدة جيش الأمير في حربه ضد التيجانيين- العامل الفعال في

إذكاء الوعي الخاطئ المؤسس على فلسفة السلطة والقوة. «لذلك لم يتوان الأمير في قصف عين ماضي وتدمير قلاعها وتجويع وتشريد سكانها في حرب مأساوية أنهكت جيشه «فقد ضيعت له الوقت والأنفس»[37]

وعندما سقطت عين ماضي أحس "الأمير" بأن هذه المدينة النائية عن مركز سلطانه لا تساوي شيئا؛ أمر مساعديه اليهوديين "ماريوس غارسيا" و"نوبل مانوشي"، باختراق التحصينات و تدمير المدينة تدميرا كليا بعد حصار عنيف امتد من «12 جوان حتى 02 ديسمبر رفع حالة الحصار ثم حرق المدينة الذي انتهى يوم 12 جانفي 1839 » [38]

تزامنت حملة "الأمير" على مدينة "عين ماضي" بسقوط مدينة "قسنطينة" واختراق الجيش الفرنسي أبواب الحديد، مستغلا الملحق باتفاقية التافنة التي وقعها النائب السياسي والعسكري للأمير "ليون روش"؛ الذي منح إمكانية التحرك للقوات الفرنسية في ربوع القطر الجزائري بحجة المحافظة على الاتفاقية التي استغلها "الأمير" لبناء دولته. وأمام هذا الوضع قام "الأمير" بعقد مجلسه الحربي لتدارس وضعية الاتفاقية وشروط الهدنة التي حملها الملحق العسكري الفرنسي "دوصال"؛ وبتلقائية تنم عن قصور الوعي السياسي والحربي سمح الأمير لـ"دوصال" بحضور الاجتماع الاستراتيجي الذي تمخض عنه الدعوة لاستئناف الجهاد ضد المحتلين. ليخرج "دوصال" وينقل حيثيات الاجتماع لقادته، في وقت لم يبدأ "الأمير" فعليا تنظيم قواته المنهكة. أضف إلى ذلك رسالته الصريحة إلى "الماريشال فالي" التي أخبره فيها بنقض الاتفاقية ومواصلة الحرب يقول الأمير:

«السلام على من اتبع الهدى قرأنا الرسالتين وفهمنا ما فيهما قلت لكم في رسائل سابقة أن العرب من ولهاصة حتى الكاف مصممون على خوض الجهاد ولا يمكنني إلا أن أكون بجانب الذين بايعوني في هذا المنصب. لقد كنت وفيا معكم لكل التعهدات التي قطعتها على نفسي، أخبرتكم بكل التحولات وها أنا ذا أفعل صادقا. أعيدو قنصلي في وهران لعائلته و استعدوا للجهاد المعلن ضدكم إذ لا يمكن من الآن اتهامي بالخديعة وخيانة العهد قلبي صافي ولا يمكنني القيام بشيء منافي للعدالة »[39]

وإثر هذه الرسالة اشتعلت الحرب من جديد بين الجيش الأميري والجيش الفرنسي بقيادة "الماريشال بيجو" نتج عنها تقهقر جيش الأمير وتدمير مدنه الواحدة تلو الأخرى؛ مما جعله يفكر في حالة أللاستقرار التي صار يحياها وجنده في عاصمته المتنقلة-الزمالة-. مكتشفا في آخر لحظة أن نائبه "ليون روش" قد خانه وباع كل أسراره لفرنسا وأنه كان

ضحية خيانة ومؤامرة استهدفت إمارته الفتية يقول "الأمير": «لم تعد لنا قوة الاستقرار. الوقت لم يكن في صالحنا، لقد قتل كل شيء وهو في المهد. تدمير المدن بهذه السهولة يبين أن ليون روش باع كل شيء، لم يكن إسلامه إلا مثل إسلام رؤساء الكثير من قبائلنا...السي عمر باع القلة و زاد البوش .هه...تمتم الأمير بسخرية وهو يعض على شفته السفلى»[40].

وبناء على الوضع القائم قرر "الأمير" الاستنجاد بملك المغرب "مولاي عبد الرحمان" الذي تنكر لأواصر القرابة والدين، بدء بإعدامه "البوحميدي" خليفة تلمسان –رسول الأمير- ومحاصرته لزمالة "الأمير" بناء على تعهد قطعه على نفسه تجاه فرنسا يقضي بطرد الأمير و دائرته من المغرب ولم لا القضاء عليه نهائيا لضمان سلطانه المهدد بالسقوط. يعبر "الأمير" عن ذلك بقوله: «لقد حاربتهم وسودت معيشتهم وعندما تخلى عني أهلي طلبت من سلطان المغرب مساعدتي فباع راسي للأعداء، اليوم لم يعد لي ما أقدمه لهذه الأرض لقد انتهت خمس عشرة سنة أنهكتني عن آخري بالنسبة للرغبة في السلطان فقد غسلت يدي بالماء والصابون. لم يد يعنيني مطلقا»[41].

وأمام هذا الوضع الإشكالي قرر "الأمير عبد القادر" ومن معه الإفلات من محاصرة القوات المغربية والقبائل المناوئة له؛ عبر هجوم كاسح أتاح لهم فرصة الانتقال إلى إقليم التيطري في الغرب الجزائري. ومع نجاح عملية الاختراق و المرور، كانت جموع الزمالة التي قطعت وادي الملوية قد سقطت في أسر القوات الفرنسية و هذا ما عجل باستسلام" الأمير" وقادته، بعد نقاش طويل حول مواصلة المقاومة؛ التي صارت تعد انتحارا، وبين الاستسلام الذي يضمن بعض كرامة العيش يقول "الأمير" في نهاية المطاف :

«أفضل أن أسلم نفسي لعدو حاربته وانتصرت عليه في الكثير من المعارك وقبلت هزائمه، على أن أقدم رأسي لمسلم خانني وقت الشدة. وسأطالب بان أنقل إلى أرض إسلامية مع عائلتي ومن أراد أن يرافقني فله ذلك ولكني لا أجبر أحدا، من أراد البقاء بين ذويه سنعمل على ضمان سلامته وسلامة عائلته وأمواله»[42].

5. البنيـــة الدالـــة في كتاب الأمير:

تعزى مهمة اكتشاف البنية الدالة[43] لأي عمل روائي إلى المجهود الذهني الذي يمارسه القارئ قصد تحديد الترابط الحاصل بين رؤية العالم كمفهوم مجرد وعناصره الداخلية المكونة له؛ «وذلك ضمن محاور ثلاثة في النص هي: الحياة الفكرية النفسية، العاطفية

والحياة الاقتصادية الاجتماعية التي تعيشها المجموعة التي يعبر عنها النص الروائي»[44]. وهي في مستوى آخر تشكل المخطط الأساسي الذي تنتظم فيه السياقات الذهنية للأفكار المبثوثة في العمل الروائي.

وتأسيسا على ما سبق، سنحاول باختصار عرض أهم المحطات الإجرائية السردية التي بموجبها يمكن معاينة البنيات الفكرية المهيمنة على أحداث ومسارات الرواية؛[45]

1.5. وظيفية الأفعال في رواية الأمير:

تنقسم الأفعال في رواية الأمير إلى ثلاثة أصناف رئيسة؛ وهي المتحققة في الماضي والواقعة في الحاضر والمتوقع حدوثها في المستقبل. وعبر هذه الأصناف يمكننا القول، أن الأفعال المشكلة للبنية العامة للرواية إنما هي فقط متحققة على المستوى الذهني باعتبار عنصر التخييل الذي يدفع بالشخصيات إلى استرجاع أحداث وقعت أو التماهي بإنجازها في الحاضر أو الحلم بوقوعها مستقبلا. وضمن هذه المستويات يمكن للإيديولوجيا أن تستفيد من حركة الأفعال لمناقشة فكرة راهنة قصد تأكيدها، أو نفيها، أو تجاوزها لاستدعاء موقف مستقبلي يتيح لها الانتشار والتجسد.

وفي هذا الإطار تنتظم أحداث الرواية وفق مسارين:

- أما الأول فيتعلق بالأفعال المتحققة الدالة على حركة متجهة نحو الماضي.
- أما المسار الثاني فيتعلق بحركة متجهة نحو المستقبل. وتهيمن على المسارين شخصيات روائية كثيرة أبرزها "شخصيتا "الأمير" والقس" ديبوش".

فعلى سبيل المثال تظهر شخصية "الأمير" عبر محطات استرجاعية تخص مرحلة طفولته وهو يجوب الأقطار العربية رفقة والده. كما تقدمه شاهدا على حادثة إعدام "القاضي أحمد" قاضي أرزيو؛ هذه الحادثة التي عجلت بمبايعته- "الأمير عبد القادر" - سلطانا على الجزائريين . إثر المبايعة عمل الأمير على بناء الدولة بدءا بتوحيد القبائل وبناء جيش نظامي يستفيد من استراتيجية التصنيع التي تضمن له القوة والهيبة وفرض السيطرة. هكذا؛ تكون حركة هذه الأفعال أساسا لتحريك مشروعه التغييري المنبثق عن وعي إيديولوجي.

أما بالنسبة للتصور المستقبلي وهو حركة تبقى في مستوى المشروع غير المتحقق، فإننا ندرج في هذا السياق المشروع النظري الكبير الخاص بالدولة الجزائرية الحديثة المؤسس على وعي تغييري جذري يستهدف البنية التحتية والبنية الفوقية في آن واحد. كما

يمكن أن ندرج أيضا تطلعات القس "مونسنيور ديبوش" القاضية بتحقيق فكرة التعايش المشترك بين الأنا والآخر وهذا ما تجلى في توسطه لدى القادة الفرنسيين للإفراج عن "الأمير عبد القادر" مجسدا صورة راقية تستشرف مستقبلا يضمن آفاق التقارب والحوار بين الفرنسيين والجزائريين.

ويمكننا أن نلاحظ من خلال التصور المستقبلي للشخصيات وجود حركة فعلية خادمة لمحور الرغبة وأخرى معيقة ناتجة عن ذوات مضادة لها ولمحور الرغبة -تحقيق مشروع التواصل والتعايش- شكلت في مجملها؛ تصنيفا دلاليا يثبت المعنى عبر حركة صراع متواترة مع ذوات إنجاز أفعال المستوى الأول وهذه الحركة يمكن رصدها عبر محورين:

2.5. محـــور البنـــاء:

يشمل هذا المحور أفعال البناء التي تؤسس حقلا دلاليا واسعا يضطلع بإصلاح إعاقة أو القيام بفعل تغييري يستهدف نمط الحياة سواء كان اجتماعيا أو سياسيا أو فكريا ويمكننا أن نوردها وفق تسلسلها في الرواية على النحو الآتي:

تعلم الأمير واهتمامه بالعلم، نقده لحادثة الإعدام الشهير -قاضي أرزيو-، توليه الإمارة، توحيد القبائل، تنظيم الجيش، بناء المصانع والبنى التحتية، قيادة المعارك، تأديب المرتدين، رعاية الاتفاقيات، إشرافه على مفاوضات إطلاق سراح الأسرى، حنكته العسكرية، استسلامه. أما أفعال البناء المسندة مونسنيورديبوش -باعتباره الوجه الثاني للشخصية الفاعلة- فتبدو في مساعدة المساكين و المحتاجين، إشرافه على دور اليتامى، تفانيه في مساعدة الأسرى، رعاية الاتفاقيات، سعيه لإطلاق سراح الأمير، زيارة الأمير و التواصل معه.

ويمكننا أن نحلل مستويات أفعال البناء: بعيدا عن الإحصائية التي قد لا تعبر بشكل دقيق عن تواتر البرامج السردية الخاصة ببناء موضوع الرغبة فإن ما تقدم سابقا يساعدنا على فهم وإبراز تمظهرات الوجه المركزي للبنية الفعلية المهيمنة على الرواية؛ من خلال التأكيد على انجذاب الفعل الإيجابي نحو الشخصيتين الرئيستين، يحققه في المستوى الذهني طابع التصحيح والبناء والتغيير؛ الذي يعبر عن مرتكزات إيديولوجية قوامها مناهضة الإيديولوجيات المناوئة المبثوثة في الخطاب الروائي .

3.5. محـور الهـدم:

من خلال هذا المحور، سنحاول رصد الأفعال المعيقة التي تضطلع بإساءة ناتجة عن ذوات مضادة؛ تستهدف أفعال ذوات إنجاز موضوع الرغبة. ويمكن تبيانها كالآتي: - احتلال الجزائر 1830، عام الجراد الأصفر، اشتعال الحرب بين القبائل سنة 1832،إعدام قاضي أرزيو، خيانة الأتراك وتسليمهم مدينة وهران للمحتلين، طمع ملك المغرب في الهيمنة على الغرب الجزائري، الكوليرا وانتشار الأمراض، تفشي الجهل والتخلف العلمي التكنولوجي، خيانة المستشارين العسكريين والسياسيين، تزوير معاهدة التافنة، تدعيم الحروب الداخلية من قبل المحتلين خيانة وتواطؤ ملك المغرب خيانة بعض القبائل، التنكر للمعاهدة من ناحية المستعمر، الأوضاع السياسية الداخلية لفرنسا سنة 1848. وبناء على الأعمال السابقة؛ يمكن تحديد بعض العلاقات البنائية التي تبرر المنطق الخاص لتوجهات الذوات المعارضة -المعيقة- وهذا من خلال تحليل هذه الأعمال -على اختلاف الذوات الفاعلة ذوات الإنجاز- إلى بؤرة واحدة تعمل على إجهاض المشاريع الفكرية التي يتبناها أقطاب إيديولوجيا التغيير والتعايش، وهي في مستواها الذهني ترتبط بالإيديولوجيات المبثوثة في العمل الروائي التي تسعى للهيمنة والسيطرة وإلغاء الآخر.

فبدافع الهيمنة؛ تمارس أفعال القتل والتنكيل وسياسة الأرض المحروقة التي سخرها المستعمرون في إذلال الجزائريين. وبدافع المصلحة الشخصية؛ لا يتوان مستشارو الأمير وأيضا ملك المغرب، في التعامل المشبوه واللاأخلاقي الذي استهدف مشروع الدولة الجزائرية وهي في المهد. وفي مستوى آخر؛ تشير البنية الفعلية للذوات المضادة من خلال عنصري الفعل والمعني بالفعل إلى علاقات الصراع والتنافر. أما على مستوى عنصر الغرض؛ فقد اتسمت بالسلبية التي عبرت -رمزيـــا- عن سعي الفاعلين وإصرارهم على إحداث الإساءة؛ لتشكل بذلك حجر عثرة في طريق ذوات المستوى الأول التي تسعى للاتصال بموضوع الرغبة. ومن خلال استقراء وضعيات الذوات ومستويات الأعمال في الرواية؛ يمكننا تحديد الترسيمة البنيوية الذهنية كالآتي:

4.5. الشخصيات والنموذج العاملي:

عدد العوامل في كل حكي محدود على الدوام في ستة؛ هي: المرسل والمرسل إليه، الذات والموضوع، المساعد والمعارض. أما عدد الممثلين فلا حدود له[46].وتأسيسا على ما سبق، سنحاول من خلال الروح العامة للمنهج البنيوي حسب"غريماس" تطبيق **نظام العوامل**[47]

على رواية "الأمير" قصد ضبط موضوع الرغبة الذي تطبعه الإيديولوجيا المهيمنة على الخطاب الأدبي.

1.4.5. البطل الفاعل-الذات/ الموضوع:

يعتبر الفاعل بغض النظر عن اختلاف الشخصيات محور تواصلها باعتباره رأس القمة التي تسعى لتحقيق موضوع الرغبة عبر شبكة علاقات التواصل relation de communication وعلاقة الرغبة relation de désir وعلاقة الصراع relation de lute .

ويبدو محور الرغبة من خلال تحليلنا لمستويات الوعي في كتاب الأمير ظاهرا في الجانب الإيديولوجي المعتمد على فكرة التعايش والتغيير التي يثمنها البطل الفاعل ويسعى إلى تحقيقها عبر الانخراط في فعل تصحيحي تغييري ينم عن رؤية شمولية تتعلق بالقواعد الإستراتيجية لبناء دولة قوية؛ فيبدو « **بطل الرواية بطلا شكليا يصارع قيما اجتماعية متدنية في مجتمع متدن**»[48] وهذا ما دفع بالأمير إلى رسم إستراتيجية لمشروعه الوطني مثلتها سياسة توحيد القبائل ونشر العلم والتفعيل الاقتصادي وبناء جيش نظامي يضمن تماسك الهيكل البناء السياسي كما يتيح الانخراط في التاريخ العالمي عبر إقامة علاقات دبلوماسية ودية مع دول الجوار و باقي دول العالم.

تبدو علاقة البطل الفاعل –ذات الإنجاز- بموضوعه علاقة انفصال وهو في تسطيره برنامجه الإيديولوجي يسعى للاتصال -أي التحقيق- وفي هذا المستوى؛ يمكن أن نميز بين الأفعال المتحققة التي تعد تحصيل حاصل كبناء الحصون والمعسكرات وصك العملة والتأليف وتبادل الأسرى التي مثلت تحقيقا جزئيا لموضوع الرغبة رغم عدم الاتصال التام. وبين الأفعال ذات الطبيعة الفكرية والفلسفية التي حققت اتصال الذات بموضوع رغبتها بناء على مراجعة الذات لأحكامها وتصوراتها ورغبتها في بناء مقومات الحوار والتعايش ونبذ الحروب، وهي المحمولات ذاتها للوعي الممكن لإيديولوجيا التعايش والحوار.

وبتحقيق التواصل عبر القيم الإيديولوجية المتبناة «يكون البطل قد أكمل تحقيق ذاته L'être لأن البطل يتصل في علاقاته بالموضوعات ضمن مظهرين، فإما أن تكون طبيعة الموضوعات ذات علاقة ذاتية و تتصل بحالة الكيان للبطل [49] l'état de l'être أو ذات صدى موضوعي تتحدد كقيم خارجية قابلة للتشخيص الموضوعي Individué »[50].

2.4.5. المساعـــــدون :

يمثل هذا الطرف من ترسيمة "غريماس" البنيوية أحد أهم الركائز الأساسية، التي ينبني عليها المخطط الذهني لمسار منطق الحكي؛ فيضطلع بالبنيات الفعلية المتعلقة بعمل البطل وهو إزاء إنجاز أو تحقيق برنامجه السردي –موضوع الرغبة- وفي هذا المستوى تعمل الشخصيات المساعدة ،على تجاوز بعض العقبات التي تواجه البطل فيتطلب التشكيل الذهني توظيف عناصر أفعال أو عوامل تكون وظيفتها خدمة البرنامج للربط بين وضعيتين أو وضعيات مختلفة.

وفي رواية الأمير، تبدو الشخصيات العاملية ممثلة في شخصيات تاريخية، وشخصيات ورقية ومنظومات فكرية وفلسفية واجتماعية؛ تؤسس في مجملها الإطار الذهني؛ الذي يؤسس بدوره لمنطق الإيديولوجيا الخاصة بالبطل الرئيسي "الأمير عبد القادر" باعتباره الشخصية المحققة لمعاير الإنجاز وأقصد التأهيل و معرفة الفعل و إرادة الفعل و إنجاز الفعل. وفي هذا المقام؛ يمكن القول أن الشخصيات التاريخية الممثلة لدور المساعد، تمثلها في الرواية شخصية "مونسنيور ديبوش" باعتباره الوجه الثاني للشخصية، من خلال مساعدته على إرساء سبل حوار فعال وجاد بين الأنا والآخر؛ جسدته في المتن الروائي تدخلاته الإنسانية المعبر عنها في أعماله الإنسانية كالإشراف على دور اليتامى والمساكين، وتوسطه لإطلاق سراح "الأمير".

كما كان للطبقة السياسية -القائمة على التصنيف البرجوازي- المشكلة من الأقارب والأعيان وقادة القبائل ورجال المال-"ليون روش" - الدور الهام في إرساء الأرضية الموضوعية لتوجهات "الأمير"، وهي بتوجهها هذا تعبر عن مسار مشترك، يجعلها شخصية ذهنية مساعدة على إنجاح موضوع الرغبة ؛المتمثل في ضرورة التغيير و تبني قيم التعايش والحوار والسلام.

3.4.5. المعارضـــون:

على عكس التوجه الأول الذي يتبعه المساعدون يظهر اتجاه معاكس لمساره يصل حد الصدام؛ غرضه إحداث إساءة أو إعاقة على مستوى موضوع الرغبة. فيظهر المعارضون على شاكلة شخصيات إنسانية، أو معوقات على شكل قيم سائدة تتعلق بمسائل فكرية واجتماعية وأيضا طبيعية تؤسس في مجملها الإيديولوجيات المعارضة الثانوية في الخطاب الأدبي. ومن خلال هذه النقطة، يمكننا أن نشير إلى أهم المعوقات الفكرية التي ما فتئت أن

تكون حجرة عثرة أمام موضوع الرغبة وعلى رأسها الجهل وتفشي الأمية و اهتراء النظام السياسي التخلف الصناعي و التكنولوجي التعدد القبلي والإثني فيما يخص الأنا.

أما من الجانب الآخر، فكانت معوقات محور الرغبة مختزلة في القوة العسكرية الاستراتيجية التي وظفها عساكر الاحتلال لإجهاض المشروع الوطني. كما وظفت في إطار الحوار التاريخي حول إطلاق سراح الأمير وحاشيته. وفي هذا المستوى نشير إلى أن الطبقة السياسية الفرنسية قد تم استبعادها شكليا على مستوى المتن الحكائي باستثناء ورودها في المراحل الختامية للحكاية الأصل وفي هذه الحالة نكون مضطرين إلى ربط هذه الشخصية بشخصية غائبة بموضوع غائب ينفي عنه صفة المعارضة الكلية لموضوع الرغبة؛ بل قد يجعل منه حافزا مساعدا على تحقيق الإنجاز بإرساء خلفية إيديولوجية تتعلق برؤية الروائي.

4.4.5. المرسـل والمرسـل إليه؛ على سبيـل الاختتـام:

انطلاقا من العرض السابق المتعلق بأقطاب الترسيمة الذهنية للحكاية العامة للرواية، تلوح في الأفق ثنائية المرسل و المرسل إليه؛ باعتبار شخصية البطل –رغم أن شخصية البطل الفاعل قد لا تتعلق فعليا ببطل الرواية أي الشخصية المهيمنة- التي يمكن ردها إلى فكرة تجريبية نابعة عن التصورات و الأعمال التي تصدر عن الكل الروائي. لذا يبدو من خلال النموذج الذهني الذي يؤسس لعرض الأفكار في النص ومناقشتها؛ أن المرسل هو الحلقة الدلالية التي تستقطب إلى فلكها مقومات إيديولوجيا التغيير والتعايش. وهي حسب شخص الأمير كبطل فاعل متجسد شكليا في النص الروائي؛ تعكس رؤية وموقف طبقة النخبة الإنتلجانسيا السياسية التي تطرح بديلا فكريا يتعلق بصيغ بناء الدولة وكيفية إرساء علاقاتها الدبلوماسية الودية بطريقة موضوعية تنأى عن المغامرات غير المحسوبة؛ التي من شأنها أن تقوض مشاريع الأنا في سبيل سعيه لتحقيق التقدم. كما تضطلع برسم صورة مغايرة للصور النمطية التي يختزنها الوعي الجمعي للذات حول الآخر. محاولة بسط فكرة تجاوز الأحقاد والضغائن التاريخية قصد التقريب وتحقيق الحد الأعلى من التقارب الاستراتيجي بين الأنا والآخر عبر الحوار.

قائمة المصادر والمراجع:

1- إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، منشـــورات الاختلاف، الجزائر العاصـــمة، ط1، 2010.

2- الأعرج واسيني، كتاب الأمير، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، 2004.
3- بوطاجين السعيد، الاشتغال العاملي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2000.
4- حميد لحميداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، مركز الأبحاث العربية، الدار البيضاء، المغرب، 1998.
5- شحيد جمال، في البنيوية التركيبية، دار بن رشد للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1982،1.
6- صالح سليمان عبد العظيم، سوسيولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1998.
7- عمر محمد الطالب: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1988.
8- عيلان عمر، الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001.
9- عيلان عمر، في مناهج تحليل الخطاب السردي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط 1، 2008.
10- لويس التوسيير، "البنية ذات الهيمنة، التناقض والتظافر"، تر: فريال جبوري غزول، فصول، مجلد 5، ع3، 1985
11- منغنو دومينيك، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، دار سيناترا، تونس، 2008،
12- -Lucien *Goldman* : pour une sociologie du roman. Ed. Gallimard. Paris-1985

الهوامش:

[1]- الوعي القائم وعي آنهو عينه الحالة النفسية للفرد أو الجماعة التي ينتمي إليها.فقد أكد عالم النفس "دلتاي Dilthey«أن الانطلاق من العالم –كما هو-يعتمد على الوعي الفردي،على القدرة التي يملكها الفرد على أن يعيش صلة نفسية وان يفهمها عند الغير،أن غرضه هو العثور على الانفعال المناسب بواسطة جماعية الانفعال والفهم التي تشكل المعرفة التاريخية ».ينظر: ستيبان اودويف ،على دروب زرادشت، تر:فؤاد أيوب ،دار دمشق،سوريا،ط1،ص108

[2]- لويس التوسيير: "**البنية ذات الهيمنة، التناقض والتظافر**"، تر: فريال جبوري غزول، فصول، مجلد 5،ع3، 1985، ص17

[3]- الوعي الممكن: فهو الذي ينشأ عن ملابسات الوعي القائم ومحاولة تجاوزه، من خلال التأسيس لأفكار ذات بعد مستقبلي تغييري غالبا. وهذا طبيعي.فالوعي الممكن يسعى لتجاوز العوائق والمشاكل التي تصيب الطبقة (المجموعة الاجتماعية)، كما يسعى إلى رصد الحلول الجذرية التي تنأى بها الطبقة عن مشكلاتها. وتحاول أن تضمن لها درجة من التوازن في العلاقات مع غيرها. وبالتالي يمكننا القول أن « **الوعي الممكن يتضمن الوعي الفعلي وإضافة عليه أنه يستند عليه ولكنه يتجاوزه** » ينظر: صالح سليمان عبد العظيم ، سوسيولوجيا الرواية السياسية ، ،الهيئة المصرية للكتاب،القاهرة1998 ،ص85.

[4]- واسيني الأعرج،كتاب الأمير ،منشورات الفضاء الحر،الجزائر، 2004ص 82.

[5]- رواية الأمير، الصفحة نفسها.

[6]- *Lucien Goldman* : pour une sociologie du roman. Ed. Gallimard. Paris. 1985. page 41

عمر عيلان ، الإيديولوجيا و بنية الخطاب الروائي، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001.

[7]- رواية الأمير، ص 104.

[8]- الرواية نفسها، ص 81.

[9]- رواية الأمير، ص 49.

[10]- الرواية نفسها، ص 50.

[11]- الرواية نفسها، ص 51.

[12]-الراوي العليم : هو الذي يملك القدرة غير المحدودة على الوقوف على الأبعاد الداخلية والخارجية للأشخاص .ينظر: إبراهيم خليل ، بنية النص الروائي، منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة،ط1، 2010، ص 81.

[13]- رواية الأمير، ص 218.

[14]- الرواية نفسها، ص 126.

[15]- الرواية نفسها ، ص 50.

[16]- رواية الأمير، ص 44.

[17]- الرواية نفسها،ص 45.

[18]- رواية الأمير، ص 214.

[19]- الرواية نفسها، ص 214.

[20]- رواية الأمير، ص 214.

[21]- الرواية نفسها، ص 261.

[22]- رواية الأمير، ص 06.

[23]- الرواية نفسها، ص 128.

[24]- رواية الأمير ، ص 280.

[25]- رواية الأمير، ص 340-341.

[26]- الرواية نفسها، ص 341.

[27]- رواية الأمير ، ص 301.

[28]- الرواية نفسها، ص 301.

[29]- الرواية نفسها ، ص 303.

[30]- رواية الأمير، ص 297.

[31]- الرواية نفسها، ص 308.

[32]- الرواية نفسها، ص 308.

[33]- جمال شحيد، في البنيوية التركيبية، دار بن رشد للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط**1982**،1، ص 114.

[34]- رواية الأمير، ص 221.

[35]- الرواية نفسها، الصفحة نفسها.

[36]- رواية الأمير، ص 229.

[37]- الرواية نفسها، ص 244.

[38]- الرواية نفسها، ص 246.

[39]- الرواية نفسها، ص 264- 265.

[40]- الرواية نفسها ، ص 272.

[41]- الرواية نفسها ، ص408.

[42]- الرواية نفسها، ص 407.

[43]- حسب "غولدمان" هي:« الأداة الأساسية التي تمكننا من فهم طبيعة الأعمال الإبداعية ودلالتها. كما تُعد المعيار الذي يسمح لنا بأن نحكم على قيمتها الفلسفية أو الإبداعية أو الجمالية، بمقدار ما يعبر-النص- عن رؤية منسجمة من العالم. وإننا **لنتمكن من فهم تلك الأعمال وتفسيرها تفسيرا موضوعيا بمقدار ما نستطيع أن نبرز الرؤية التي تعبر عنها** ». عمر محمد الطالب: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1988، ص 243.

[44]- عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، ط 1، 2008، ص 262.

[45]- السعيد بوطاجين،الاشتغال العاملي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2000، ص 16.

[46]- المرجع نفسه ، ص 52.

[1] - يقوم هذا البناء النظري حسب "غريماس" على ثنائية الملفوظ الذي يمثل وضعية التواصل «بين الذات الفاعلة والموضوع فتكون في حالة اتصال مع الموضوع وإما أن تكون في حالة انفصال عن الموضوع وهذا النمط هو الذي قصده غريماس بملفوظات الحالة Les énonces d'état ويترب على ملفوظات الحالة تطور ضروري قائم يسميه "غريماس" بملفوظات الإنجاز énonce de faire وهذا الإنجاز يصفه faire transformateur بأنه الإنجاز المحول ومن الطبيعي أن يكون هذا الإنجاز إما سائرا في حالة الاتصال أو في طريق الانفصال وذلك حسب نوعية رغبة ذات الحالة sujet d'état. نقلا عن ،حميد لحميداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي،مركز الأبحاث العربية،الدار البيضاء،المغرب،1998.

[48]- Lucien Goldman. *POUR UNE SOCIOLOGIE DU ROMAN*-Ed-Gallimar 19 p:26

[49]- دومينيك منغنو،معجم تحليل الخطاب،تر:عبد القادر المهيري، دار سيناترا،تونس،ط2008،ص.257

[50]- عمر عيلان، الإيديولوجيا و بنية الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 206.